

رحلات ابن خلدون ووظائفه بين العلم والسياسة

د. مداح عبد القادر
جامعة ابن خلدون. تيارت

مقدمة:

قال ابن خلدون أن أهل المغرب لا يسجلون تراثهم. لذلك فهم لا يحفظونه وكأنه نعي غي به نفسه بقصد أو بغير قصد- لأنه لما حل بناحية فرنده¹ بولاية تيارت، وأقام عند أولاد عريف قبلة جبل كزول² وقتا غير يسير في مهمة كلفه بها السلطان أبو حمو، وكانت نيته الابتعاد عن السياسة وخدمة الملوك، وهذا ما عبر عنه أعيان المنطقة باعتذارهم نيابة عن ابن خلدون، وقد قبل السلطان اعتذارهم - خصص أولاد عريف قصرا يقيم فيه ابن خلدون كما وصفه هو في كتابه حيث قال: (... وسكنت بقصر أبي بكر بن عريف الذي اختطه بها وكان من أحفل المساكن وأوثقها³). نرى اليوم في قلعة بني سلامة جنوب فرنده لا وجود لأثر القصر أو ابن خلدون إلا على أفواه العامة، مع أنه أقام بها ما يقارب الأربعة أعوام. وزيادة على ذلك كتب مقدمته هناك وفيها يقول: (... ثم طال مقامي هنالك وأنا مستوحش من دولة المغرب وتلمسان،

وعاكف على تأليف هذا الكتاب، وقد فرغت من مقدمته إلى أخبار العرب والبربر وزناته⁴). وليس معه إلا حافظته وما حضره من معلومات. وإن كان تقديرنا للصلحاء والأولياء بتخليد آثارهم وتكرار زياراتهم، وصيانة أضرحتهم خشية الاندثار، فتقديرنا للعلماء لا نجد له عزاء سوى في الندوات والملتقيات، التي تستشعر مقام هؤلاء وتستفز أقلام الباحثين لنذكرهم من حين إلى آخر، مذكّرين بأهميتهم في تاريخ الأمة الإسلامية وتاريخ المغرب على وجه الخصوص، وتحديدًا تاريخ الجزائر. ولأن تراثنا بمجملة تراثا إنسانيا يمثل ابن خلدون رمزا من رموزه العلمية،- لما خلفه من تأليف في شتى ميادين المعرفة-؛ تبارت الأقلام وقدمت أبحاثا ودراسات حول هذه الشخصية الفذة. وتضاربت الآراء بشأنه ولاسيما حول طموحاته. ففريق جعل من ابن خلدون شخصا سعى سعيا حثيثا طالبا الجاه والسلطة، ورموه بأدلة مما كتب وتوليه خدمة الملوك. وفريق آخر بيض محاسنه

وجد في تقديم الأدلة مما ألف من كتب وترك من ذخائر، محاولين صرف أي اهتمام له بالسياسة والمجد والعلو.

بينما آخرون تطارحوا في نسبته إلى اختصاصهم من فلاسفة ومؤرخين وعلماء اجتماع دون العمل على دراسة نظرياته وتطويرها.

فهل أخفى ابن خلدون طموحاته السياسية وراء ستار العلم، أم اختفى هو وراء علمه ومعرفته ليتقلد مناصب عليا في خدمة الملوك حبا منه في السياسة والرياسة؟ أم أن عراقا أسرته وجاهاها مع نباغته وتبحره في العلوم وحنكته في سياسة المشاكل، وفك معضلاتها اجتمعتا في شخصه، فكان لا بد ألا يكون إلا على هذه الصورة؟

وللإجابة على هذه الإشكالية سنحاول معرفة ما حدث مع ابن خلدون، وكيف بدأت رحلته التي استمرت بالانتقال شرقا وغربا، ومن مصر إلى مصر جامعا بين السياسة والعلم.

نبذة حول حياة ابن خلدون:

لا يصعب على أي باحث أن يطع على حياة ابن خلدون، ولن يجد صعوبة في تتبع من ترجم له إلا على سبيل وجهة نظر من فعل ذلك ممن عاصره⁵، أو جاء بعده. لأن فيها ما فيها من تحامل غير مؤسس على دراسة علمية حول سيرة ابن خلدون، وعن مواقفه وأرائه وخصوصا المشاركة⁶، وبالأخص من جاء بعده ونهج نهجهم ولا يعلم السبب؟.

فهو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون. وقد دخل جده خالد المعروف بخلدون مع الفاتحين في الأندلس، وأقام بقرمونة، ثم انتقل بعد ذلك مع أسرته إلى اشبيلية. وتشتهر أسرة ابن خلدون آنذاك بالعلم والسياسة، حيث منهم الوزراء، ومنهم من تقلد إمارة اشبيلية. ومن الأندلس انتقلت الأسرة إلى سبتة في عهد ابن الأحمر. أما جد ابن خلدون تحديدا فقد استقر بعنابة؛ وأميرها وقتذاك ابن زكريا حتى وفاته. وعندما تغلب ابن عمار على ابن زكريا فرأبته محمد إلى بجاية مع أبي حفص. وبعد أن آل الأمر إلى هذا الأخير تولى محمد الحجابة لديه بتونس. ولما مات ترك ابن اسمه محمد فابتعد هذا الأخير عن السياسة وشواغلها ومخاطرها، وانصب

على العلم والورع والزهد كما عرف عنه، وأنجب ابنه عبد الرحمن هذا الذي نحن بصدد الكتابة عنه.

نشأة ابن خلدون العلمية والسياسية:

ولد ابن خلدون في غرة رمضان عام 732هـ / 1331م، حيث تربى في كنف والده، الذي تولى تربيته وتعليمه، وهو أول أساتذته، حيث أخذ عنه اللغة العربية وقواعدها، وحفظ القرآن بالقراءات السبع على أستاذه ابن عبد الله بن سعيد بن براد الأنصاري، وأخذ عن آخرين: منهم عبد الله بن العربي الحصائري، وأبو عبد الله محمد الشواش الزرزالي، وأبو العباس محمد القصار، وأخذ في تونس عن إمام عصره في العربية والأدب أبو عبد الله محمد بن بحر، وأخذ الفقه واللغة عن شمس الدين أبو عبد الله بن جابر القيسي. وأما العلوم العقلية كالرياضيات والطبيعات، والفلك والمنطق والفلسفة أخذها عن ثلة من العلماء أهمهم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأبلي التلمساني، وهؤلاء كلهم شهدوا بنبأته ونباهة ابن خلدون وأجازوه في ذلك.

رحلات ابن خلدون:

لكل حادث أثر؛ هذا ما غير مجرى حياة ابن خلدون من الاستقرار إلى الترحال، فأول هذه الحوادث وأبلغها تأثيراً ثورة تونس على سلطان القيروان سنة 749هـ التي أحدثت فتنة كبيرة رغم فشلها. والحدث الآخر هو وباء الطاعون الذي فتك بالعديد من الناس ولم يسلم منه والده محمد⁷، وكذا أساتذته ابن خلدون والأعيان والمشايخ. ضف إلى ذلك انتقال أرباب العلم وبالأخص من كان يستأنس بوجودهم إلى فاس وتلمسان⁸، ولاسيما أستاذه الأبلي الذي كان يجله ويعظمه. فعزم ابن خلدون على الرحيل غير أن أخاه محمد منعه من السفر.

بداية مهام ابن خلدون السياسية:

في ظل تلك الأحداث استدعى سلطان تونس بن تفرّاكين عبد الرحمن ابن خلدون ليشغل منصب كتابة السر، وقد قبل ابن خلدون الوظيفة وباشّر عمله. وهذه الوظيفة منحتة فرصة للحاق بأساتذته أو على الأقل سبيلا للرحيل. غير أن النزاع الذي وقع بين أمير قسنطينة وسلطان تونس كان هذا هو سبيل حجة خروج ابن خلدون إلى المغرب ونجا من الحرب، وعند وصوله تلمسان وجد أبا عنان قد قتل

صاحبها، فعاد أدراجه إلى بجاية. وعندما استتب الأمر لأبي عنان نظم مجلسا كونه من العلماء، ودلوه على مكان ابن خلدون، فبعث في طلبه ليكون في مجلسه العلمي وكانت رحلة ابن خلدون إلى فاس سنة 755هـ، حيث عين كاتباً لأبي عنان.

رحلته إلى فاس:

يبدو أن ابن خلدون قد رُغم على الوظيفة لدى أبي عنان، ولا شك أن تجاذبات السياسة والعلم كانت أيضا من المراغم، فتارة يتقلد الوظائف ويوصي بها كما فعل مع أخيه يحيى، وتارة أخرى يرغب في مصاحبة أهل العلم كأستاذه الأبي والشريف الحسني والمقري وغيرهم. وكان ابن خلدون حسن المعشر، فهو لا يستشرى عداوة أحد وخصوصا الأمراء والملوك، فقد كان على علاقة وطيدة مع أمير بجاية ولم ير ضررا في مصاحبته، في حين أن الوشاة سعوا بينه وبين السلطان وألزموه التآمر مع أمير بجاية، وألقي عليهما القبض، ومكث ابن خلدون سنتين في السجن، إلى أن مات أبو عنان وخلفه الوزير بن عمر الذي تولى شؤون الدولة، فأطلق سراحه وأعادته إلى منصبه، رغم أنه طلب الانصراف إلى بلده.

في ظل هذه الأحداث طالب أبو سالم المريني بالملك، واستعان بالمشاهير ومن جملتهم ابن خلدون، ولما كان الحصار على بن عمر ضجر منه الناس بالإضافة إلى مساهمة ابن خلدون في الدعوة له استسلم بن عمر ودخل في جملة من دخل في طاعة أبو سالم، فقرب هذا الأخير ابن خلدون وزاده إلى جانب كتابة السروظيفة القضاء. والملاحظ أن ابن خلدون أينما حل نفى عليه الحساد من حاشية الملك، كما فعل ابن مرزوق¹⁰، لولا أن استعاد بن عمر الملك من أبي سالم فسلم ابن خلدون من الحسد والوشاية، غير أن الحال لم تستمر كما كانت عليه بين بن عمر وابن خلدون الذي كان يطمح إلى العلا، وتبدل عنه بن عمر، فعزم على الرحيل إلى تلمسان متجاهلا طلب الحسن بن عمر في البقاء، وقد أجزل له في الإكرام والعطاء لمنعه من إعانة ابن حمو في تلمسان لمعرفته بمقدرة ابن خلدون في تدبير الأمور.

في هذه الأثناء بعث ابن خلدون بأهله إلى قسنطينة، وارتحل هو إلى الأندلس، وهو يريد الجزائر. ولأن الأندلس بها صديقه الوزير ابن الخطيب وأيضا السلطان بن الأحمر وله منقبة عند هذا الأخير، حيث ساعده عندما كان مخلوعا، وتكفل

بعائلته؛ هذا من جهة، وشوقه إليهما من جهة ثانية، وحتى يتمكن من المرور إلى الجزائر في حماية من جهة ثالثة.

رحلته إلى الأندلس:

حط ابن خلدون رحاله عند صديق اسمه سعيد بن موسى وكان يشغل منصب رئيس الشورى بسبته، ومنها ارتحل مؤلفنا إلى غرناطة، وقد مهد برسالة إلى ابن الأحمر تخبر عن قدومه. ولدى وصوله استقبل خير استقبال، وأنزل في بيت جهاز وهيئ له من قبل. شغل ابن خلدون مستشارا لدى ابن الأحمر وكان من مرافقيه الشخصيين في كل مكان، حتى انه اسند إليه مهمة الصلح بينه وبين صاحب اشبيلية.

ونحن نتتبع رحلات ابن خلدون ومهامه فيها، نجده مرغوما من جهة ومرغوبا من طرف الحكام من جهة أخرى، وكل ما حل عند حاكم إلا وأغدق عليه وأكرمه وأجزل له العطايا ليبقيه في بلاطه، وإن دل هذا على شيئا إنما يدل على المكانة التي يحظى بها مؤلفنا وبالأخص عند الساسة بوجه عام من ناحية وزهده في تلك المغريات من ناحية ثانية.

كانت نية ابن خلدون الاستقرار بالجزائر، لكن بن الأحمر تشبث به وأغدق عليه وأمر بنقل أهله، وبعد سنة من الإقامة عنده، وإثر الحظوة التي بلغها والمنازلة الرفيعة في البلاط انقبض عليه الوزير ابن الخطيب¹¹ رغم الصداقة القوية بينهما، وتغزو عليه خوفا على مكانته، وهذا ما شجع ابن خلدون على مغادرة الأندلس، وقد ندم ابن الخطيب وراسله مرارا كما ذكر ابن خلدون ولم يعاتبه في ذلك.

عودته إلى الجزائر:

غادر ابن خلدون الأندلس متوجها إلى الجزائر من مرفأ المرية نحو بجاية، وقد يكون سببا أقوى من الآخر في رحلته هذه، فالأول هو تغزو صديقه الحميم الوزير ابن الخطيب عليه، وابن خلدون يدرك مخاطر ذلك، والسبب الثاني هو طلب صديقه أبا عبد الله أمير بجاية عندما مات أبو عنان وعادت إليه مقاليد الحكم وسانده في محنته الأولى حينما كان بفاس. لذا عزم أمير بجاية على رد صنيع ابن خلدون ووعدده حال قدومه بتوليته الحجابة، والسبب الثالث الذي يكون هو الأقوى:

وجود أهله بالجزائر، فزوجه بقسنطينة، وأخوه يحيى ببجاية، كما كانت مسقط رأس جده. إلى جانب الحجابة عين خطيبا بجامع القصبة، بالإضافة إلى تدريسه العلم بنفس الجامع، وهذه التجاذبات هي التي جعلت الدارسين له الانقسام بشأنه. فهو ينتمي إلى السياسة بقدر انتمائه إلى العلم، وحسب تصريحه هو فإن السياسة فرضت نفسها عليه فرضا، وكما قال انه كان يتهرب منها وتسند إليه مرغما نظر إلى حنكته ومقدرته الفائقة في تسيير شؤون الدولة، وفي ذات الوقت قدم للإنسانية علوما وخبرة في مجال البحث العلمي أن السياسة لا يمكن أن تكون عائقا أمام المطالعة والدرس وتحصيل المعرفة.

لم تسعف الظروف ابن خلدون في المكوث طويلا في خدمة الملوك، فسرعان ما تظلم في وجهه بسبب النزاع الذي يحدث بين الأمراء والملوك، كما حدثت في نفس الفترة حربا بين سلطان بجاية وابن عمه ابن العباس صاحب قسنطينة، ولعب ابن خلدون دورا بارزا في أحداثها. ولما أفضى الأمر إلى هذا الأخير، دخل ابن خلدون في طاعته، حيث أبقاه ابن العباس في منصبه. ودائما وراء ابن خلدون السعاية والوشاية به حسدا على مكانته ومنصبه، وحذر ابن خلدون نابع من خبرته ومعترك حياته. لذا استقال من المنصب واستأذن في الانصراف ولجئ على ذلك. وكان نزول ابن خلدون ببسكرة عند يعقوب ابن علي، مصدر شكوك أبي العباس الذي اعتقل أخاه يحيى، وقام بتفتيش بيتهما لوشاية بوجود ذخيرة هناك. ثم انتقل ابن خلدون ونزل عند صديق آخر هو الشيخ احمد بن يوسف بن مزين.

توالى الأحداث في تلك الفترة، وحدثت حرب بين أبي العباس وأبي حمو صاحب تلمسان بسبب مقتل صهره ابن عبد الله، وانتهت بعودة أبي حمو إلى تلمسان، بعد تعاون ابن زيان بن السلطان أبي سعيد بن عم أبي حمو. وقد طلب أبو حمو معونة ابن خلدون لكنه اعتذر. بعد عودة أبي حمو إلى تلمسان أرسل رسالة بخط يده يستدعي ابن خلدون ليكون حاجبا عنده، غير انه لم يذهب، وأوصى بمنصبه لأخيه يحيى¹² بعدما خرج من معتقله كما ذكر في كتابه.

ظلت الصراعات قائمة بين أبي حمو وابن عمه، وظل ابن خلدون مناصرا لأبي حمو، وانتهى الأمر بابن خلدون إلى الابتعاد عن هذا النزاع، خاصة عندما طالب الملك عبد العزيز المريني وعزم على غزو تلمسان، عندها حاول ابن خلدون العودة

إلى الأندلس، لكن الظروف لم تسعفه، حيث ألقى عليه القبض من طرف سرية السلطان المريني، لوشاية خالية من الصحة. سجنه الملك المريني ليلة، ثم أطلق سراحه في الغد، وهذا كان دافعا قويا ليعتزل ابن خلدون الساسة، ولجأ إلى رباط أبي مدين وانقطع للعبادة والعلم وفي ذلك يقول ابن خلدون: (فعمدت إلى رباط الشيخ الولي أبي مدين ونزلت بجواره مؤثرا التخلي والانقطاع للعلم لو تركت له. وفعلا لم يترك لذلك فقد استدعاه بعد مدة وجيزة ملك المغرب عبد العزيز المريني، وقربه منه مرغما له ولم يجد ابن خلدون لدفع ذلك سبيلا.

لقد كلف ملك المغرب عبد العزيز المريني ابن خلدون بمهام، وقد نجح في ذلك. لكن الصراع كان شديدا، سئم منه ابن خلدون وخصوصا في المغرب الأوسط، وما كان بين أمرائه من معارك.

سفره إلى المغرب:

لما مات عبد العزيز المريني خلفه ابنه أبي أكبر بن سعيد تحت كفالة الوزير أبي بكر غازي، وانتقل السلطان الجديد إلى فاس. أراد ابن خلدون القدوم من بسكرة، والسفر إلى فاس، وكان الأمر كذلك. فلما وصل استقبل بحفاوة، وقربه الملك من مجلسه. لكن الأمور تأزمت بين ابن غازي وصاحب الأندلس ابن الأحمر بسبب فرار وزيره ابن الخطيب ولجونه إلى المغرب، ورفض سلطان المغرب طلب ابن الأحمر لإبعاده. حدثت خطوب كثيرة وأحداث يطول ذكرها. غير أن ابن خلدون خلص نجيا من أهوالها.

رحلته إلى الأندلس وعودته إلى الجزائر:

ضجر ابن خلدون مما حدث بالمغرب وما ألم به من فتن وصراعات ليس لها هدف سوى حب الرئاسة والتسلط، فعزم على الرحيل إلى الأندلس سنة 776هـ، وفي طريقه التقى بعبد الله ابن زمرك، كاتب ابن الأحمر، وموقدا من قبله لتهنئة ملك المغرب، فطلب منه ابن خلدون إحضار أهله لدى عودته. غير أن ملك المغرب رفض لاعتبارات سياسية وطلب أن يصرف ابن خلدون إلى الجزائر. كما أن ابن خلدون استغل فرصة وجوده بالأندلس ليخلص صديقه ابن الخطيب من الأسر. غير أنه لم ينجح في ذلك وقتل ابن الخطيب. وقد دفع هذا الحادث وغير ذلك من أحداث بابن خلدون الانتقال إلى الجزائر، وإثر أحداث مؤلمة، قرر صاحبنا

السكون والاستقرار، فنزل بقلعة بني سلامة ليتفرغ للتأليف، وكتب هناك مقدمته كما ذكرنا سالفًا.

رحلته إلى المشرق:

تعتبر الرحلات إلى المشرق بالنسبة للمغاربة رحلات من أجل أداء فريضة الحج، وطلب العلم أيضًا، وابن خلدون من جملة من رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج¹³، غير أنه استقر في بداية الأمر بالقاهرة بعد أن دامت رحلته بحرا 45 يوما، فنزل بالإسكندرية والحاكم بمصر يومئذ الظاهر برقوق. لقد استقر ابن خلدون بها لأسباب كثيرة، واستدعي للتدريس بجامع الأزهر، بعدما اكتسب معارف، وعرف قدره ومزنته. وقد طلب ابن خلدون من الظاهر برقوق التلطف لدى صاحب تونس بتسريح أهله والسماح لهم بلحاقه، غير أنهم هلكوا في الطريق على اثر عاصفة بحرية. وقد أثر هذا الحدث على ابن خلدون كثيرا وكان ذلك سنة 786 هـ.

اشتغل ابن خلدون بالإضافة إلى التدريس بجامع الأزهر بمدرسة القمحية، التي أسسها صلاح الدين الأيوبي، وعين أيضا قاضي قضاة المالكية حسب ما كان معمول به في المذاهب الفقهية الأربعة، لكل مذهب قاضي، ودائما السعاية من فرط الحسد، ونفوره من هذا المنصب جعله يترك القضاء، وأعيد إليه القاضي السابق ابن البسطامي، وانصرف هو إلى الحج. ولدى عودته استقبل مثل السابق، وعاد إلى التدريس من جديد بالظاهرية، ثم مدرسة صلغمتش الناصري، وقد سجل ابن خلدون خطبة تنصيبه التي حضرها العلماء والأعيان.

بعد أن عزل من القضاء سنة 787 هـ عكف على التأليف مع التدريس بجامع الأزهر.

ما دار بينه وبين تيمور لنك:

رحل ابن خلدون مع جمع من القضاة رفقة سلطان مصر إلى دمشق مرغما، لصدد التتار، لكن سلطان مصر تناهت إليه أخبار حول الانقلاب عليه في مصر فقفل راجعا وترك وراءه القضاة وابن خلدون. والأمر المهم الذي حدث بين تيمور لنك وابن خلدون، هو حصول هذا الأخير على وثيقة الأمان لأهل دمشق من تيمور لنك، وبفضل دهائه وحنكته تمكن من ذلك دون أن يحدث له شيء. ولما عاد إلى مصر أعيد إلى منصب القضاء سنة 803 هـ، لكن أصحاب المصالح المتنفيين

سعوا فيه بالوشاية فعزل مرة أخرى سنة 804هـ، وأعيد إليه في نفس السنة، وظل يعزل ويعاد مرة هو وأخري ابن البسطامي إلى غاية 807هـ وكانت الأخيرة.

لقد شغل ابن خلدون معظم الوظائف الرفيعة، سواء في السياسة أو العلم، وأجاد عمله إجادة كبيرة، وكان يقوم بمهمة التدريس والتأليف، وفي نفس الوقت يتولى القضاء بكفاءة عالية، وقد حكم هو بذلك كما سنعرف، كما أنه أحسن التصرف في الشؤون السياسية، وكان يخرج من المهالك سالماً، عكس ما حدث لأخيه وصديقه ابن الخطيب.

توفي رحمه الله في السادس والعشرين من رمضان عام 808هـ الموافق لـ 1406م

ابن خلدون بين السياسة والعلم في نظر غيره:

بالنظر إلى آثاره العلمية، بنا فريق رأيته على أن ابن خلدون كان شغوفا بالعلم، ولم يكن يطمح إلى المناصب السياسية العليا في خدمة الأمراء والملوك، ودليلهم في ذلك مؤلفاته، التي يشهد بفنونها وقيمتها العلمية البعيد قبل القريب، فضلاً عن أعماله الأخرى من تدريس وقضاء، والمراسلات التي شكلت بدورها مؤلف لا يقل أهمية كوصف المغرب العربي لتيمور لك بطلب منه، ومراسلاته المطولة مع ابن الخطيب، والتأليف أكثر من الأعمال السياسية من حيث الأثر، وأنه كان ميالاً إلى العلم منه إلى السياسة، التي كان في أغلب الأحيان مرغماً فيها من كتابة السر إلى الحجابة¹⁴ إلى المهمات الأخرى.

لقد ترك ابن خلدون مؤلفات خلدت ذكره، ونذكر في هذا المقام ما هو معروف ومتداول بين الباحثين:

.كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ذكر أخبار العرب والبربر والعجم ومن جاورهم من ذوي السلطان الأكبر، وفي مقدمته قدم لكل فن من فنون المعرفة بمنهجية علمية ورؤية ثاقبة، وفيه أيضاً تاريخ العرب منذ بدأ الخليقة إلى عصره، ثم تاريخ الدولتين الأموية والعباسية، ثم تاريخ الدولة العلوية، وتعرض أيضاً إلى تاريخ الإسلام على عهد الأتراك بمصر إلى غاية عصره، وتناول بالتفصيل تاريخ المغرب العربي ثم المغرب العربي والأندلس. وفي الأخير فصل في سيرته وذكر حياته وما حدث معه. ومن المؤلفات الأخرى، شفاء السائل وتهذيب المسائل حول التصوف وأربابه، بالإضافة إلى مؤلف في وصف المغرب العربي.

في حين أن أقرانه كالوزير ابن الخطيب افرد كتابا لصاحب نعمته ثم قتله والحال كذلك مع أخيه يحي صاحب بغية الرواد من حيث المشابهة، كما أن حال ابن مرزوق شبيهة بحال ابن خلدون في السياسة والترحال، والسلامة من أذي الملوك والأمراء في الاغتيال وكلاهما ماتا بالقاهرة.

إن إنتاج ابن خلدون العلمي لا يستغني عنه باحث في التاريخ أو علم الاجتماع أو الفلسفة وغيرها، وكما قيل عن أبي حنيفة أن من أتى بعده عيال عليه، وأنا أقول عن ابن خلدون نفس الكلام، فمن أتى بعده عيال عليه فيما سطره في مؤلفاته. وقد شهد له أقرانه وتلامذته بألمعيته ومقدرته وما كتبه لم ينسج مثله.

الفريق الثاني صب جام غضبه على ابن خلدون وخطوا من شأنه، وجعلوه ككل طامع في العلا والوجاهة وتقلد المناصب السامية في الجانب السياسي، وعابوا عليه جهله في القضاء وسأذكر ما قاله عنه السخاوي في ترجمته له، ونحن لا نميل إلى تنزيه ابن خلدون لكن نذكر ما قاله هو عن نفسه لما تولى القضاء ونقارنه بما قاله عنه السخاوي. قال ابن خلدون: (فقامت بما دفع إلي منذ ذلك المقام المحمود، ووفيت جهدي بما أمفي عليه من أحكام، لا تأخذني في الحق لومة لائم، ولا يزعجني جاه ولا سطوة، مسويا في ذلك بين الخصمين، أخذ بحق الضعيف من المحتكمين، معرضا عن الشفاعات والوسائل من الجانبين...). وقد فصل في ذكر هذا ولا يسع المقام في إثباته هنا، وفي المقابل نرى ما قاله عنه السخاوي: (...) ثم قدم الديار المصرية في ذي القعدة سنة أربع وثمانين فحج، ثم عاد إليها، وتلقاه أهلها وأكرموه، وأكثروا ملازمته والتردد إليه، بل تصدر للإقراء بجامع الأزهر مدة ولازم هو الطنبغا الجوباني فاعتنى به إلى أن قرره الظاهر برقوق في التدريس بالقمحية بمصر، ثم في القضاء المالكية بالديار المصرية في جمادى الآخرة سنة ست وثمانين، فتنكر للناس، بحيث لم يقم لأحد من القضاة، لما دخلوا للسلام عليه، مع اعتذاره لمن عتبه عليه في الجملة، وفتك في كثير من أعيان الموقعين والشهود، وصار يعزر بالصفع، ويسميه الزج، فإذا غضب على إنسان قال زجوه فيصفع حتى تحمر رقبته، ويقال أن أهل المغرب، لما بلغهم ولايته القضاء تعجبوا، ونسبوا المصريين إلى قلة المعرفة¹⁵...).

وبمقارنة بسيطة نجد أن السخاوي وبالرغم من كونه ناقدا، ذكر خلاف ما قاله ابن خلدون، وتابعه غير واحد في دس السم في العسل حول هذا العلامة، وكما له حساد في السياسة فهم في العلم أكثر وفي عصرنا قال عنه محمد أركون: قدم ابن خلدون لكل شيء فترك كل شيء، ومن يجد مقدمة لفن من الفنون عليه أن يكمل بدل ذم صاحبها لكونه لم يكمل في ذلك ولو نظرنا إلى الوقت فلن يسعفه ذلك ولو عمر مائة سنة.

آخرون جعلوا ينسبونه حسب ما كتب في مجال اختصاصهم، وكل فريق بما لديهم فرحون، ولم يكلفوا أنفسهم عناء دراسة فكره وتطوير نظرياته وإلحاق إضافات إلى عمله من شأنها أن تثمر جهوده وتتوج بسبق حضاري كما فعل هو. لا نملك إلا أن نقول أن ابن خلدون؛ خدمت السياسة فطرته وعلمه، ليكتب على دراية تامة عن السياسة والملك من جهة، وخدم العلم والمعرفة ابن خلدون في المشاركة السياسية والتأثير في مجريات الأحداث وخلص إلى زبدة ما انتهى إليه وقدمه بالكيفية التي نراها. ويكفي ما قام به ابن خلدون ظهورا وتميزا كونه عاش في عصر الانحطاط والضعف بالنسبة للمسلمين، في ظل الفتن والنزاعات وقلة الإنتاج العلمي والاقتصار على تركة العصر الوسيط، وشذ ابن خلدون بما قدمه من نظريات مبتكرة في علم الاجتماع، وما قدم من أخبار ووصف للأحداث بكيفية دقيقة ومنهج علمي تاريخي لم يسبقه إليه احد. وكان التاريخ قبل ذلك شمولي يروي أصحابه الغث والسمين، فجعل له قواعد وتتبع الظواهر الاجتماعية وفسر أسبابها.

الخاتمة:

لقد كانت رحلات ابن خلدون غربا وشرقا مليئة بالإحداث، وتقلد فيها وظائف، وتخللتها أوقات انكب فيها على التأليف والتدريس. فجمع بذلك في حياته بين الوظائف السياسية، والعلم والمعرفة والتأليف، فنحن اليوم نستند إليه في تحقيق الأخبار وتحليل الظواهر وتحكيم الأقوال. وعلى من يتحامل عليه أن يقدم ذلك بأدلة ظاهرة ودراسة علمية كما أن من يبيض محاسنه إلى الحد الذي يجعله غير قابل للنقد، أن يقدم ذلك ببيان. وعلينا أن نذكر آثاره وما تركه بشيء من التقدير ودراسة أعماله بطريقة علمية بعيدة عن كل تحامل أو تبجيل، ويكفي أن الآثار التي حل بها في منطقة تيارت والقصر الذي كتب فيه مقدمته طمس فلا

نطمس أعماله سواء باتهامه بالسرقة العلمية كما يظهر للبعض، ونسبوا أفكاره إلى إخوان الصفا أو ما بشاع أن نظرياته منحولة عليه، وليس مؤسساً لعلم الاجتماع، وأن هذا العلم لم يكن قائماً بالمعنى الصحيح بعده. فمنهم القائل هو فيكو أو مكيا فيلي الإيطاليين، وغيرهم قال هو هيربرت سبنسر، وآخرون يقولون هو أوجست كونت أو دوركايم، وما ذلك إلا خطأ من شأن ابن خلدون ومن ورائه العرب. ولقد تناول ابن خلدون من قبل نقادا فتركوا المؤلف، ووقعوا في المؤلف، لعدم قدرتهم على نقد ما ألف.

لذلك وجب على كل دارس أن يقصد الحقيقة ويتبع طريقها كما فعل ابن خلدون دون أن يتعصب لطرف أو جهة. وإذا ما قارناه بعلماء عصرنا من الاجتناس المختلفة نجد ذاتيتهم بادية إذا ما تعلق الأمر بقوميتهم في حين نجد ابن خلدون لما تناول العرب ذكر ما لهم وما عليهم كغيرهم مما تعرض إليه في مؤلفه. لا يمكن أن نقيم شخصية مثل ابن خلدون من خلال تتبع سيرته وحياته بل يمكن ذلك إذا استوفينا المقدرة على دراسة ما قدمه دراسة علمية موضوعية، وهذا يحتاج إلى تكاتف المتخصصين من أساتذة وباحثين حتى نعرف مكانته العلمية إنصافاً لنا وله.

الهوامش

¹ هي اليوم مدينة تقع جنوب غرب تيارت على مسافة 50 كلم

² بوعزيز يحي، آثار الدكتور يحي بوعزيز، دار البصائر للنشر والتوزيع، مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، طبعة خاصة، 2009، ص 177

³ ابن خلدون عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخير في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، اعتنى به، أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، طبعة مصححة، دت، ص 2091

⁴ نفس المرجع، نفس الصفحة

⁵ قال عنه السخاوي بعض الكلام الذي لا يليق في ترجمته له مستنداً إلى أخبار أهل المغرب لما سمعوا بتوليته قاضي قضاة المالكية بمصر، ولم يتوانى السخاوي مع رفعة قدره إلى ذكر ذلك. وهو يعلم مقدرة ابن خلدون وغزارة علمه وهو حال المغاربة مع أهل مصر منذ زمن بعيد.

⁶ ذكر السيوطي الكتب المصنفة في التاريخ وذكر أهمها وبلغت 11 ولم يأتي على ذكر ابن خلدون لأنه يظن ربما أنه ليس من أهم الكتب؟ السيوطي جلال الدين، تاريخ الخلفاء، دار الغد الجديد للطباعة والنشر والتوزيع، تحقيق، محمد أحمد عيسى، ط 1، 1434هـ / 2012م،

⁷ توفي بوباء الطاعون عام 750هـ / 1349م، موجز دائرة المعارف الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ج 1، ط 1، 1418هـ / 1998م، ص 178

⁸ هاتان الحاضرتان قبله العلماء في ذلك الوقت، ومقصد طلاب العلم نظرنا للعناية التي توليها للعلم والعلماء وقد ذكر ابن مرزوق تنافس حكام هاتان الحاضرتان في جلب العلماء وذكر تقدير أبي الحسن للعلم والعلماء وترجم لطبقاتهم والملازمين للسلطان أبي الحسن. ابن مرزوق محمد، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق، ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم، محمود بوعباد، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007، ص 261. ينظر: يحيى ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مطبعة ببيير فونطانا، الجزائر، المجلد 1، 1321هـ / 1903م، ص 22

⁹ هو الشيخ محمد بن إبراهيم الأبي التلمساني ولد سنة 681هـ - 757هـ / 1282-1356م، بوغزني يحيى، المرجع السابق، ص 79

¹⁰ هو محمد الرابع بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني، أبو عبد الله: كان يلقب ((شمس الدين))، ويعرف بالخطيب الأكبر، الجد والرئيس، ولد في تلمسان سنة 711هـ / 1311م، ومات في القاهرة سنة 781هـ / 1379م، المسند الصحيح، المرجع السابق، ص 19

¹¹ ذو الوزارتين: وزارة القلم ووزارة السيف، هو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلمي، ولد في الخامس والعشرين من رجب 713هـ / 10 نوفمبر 1313م، ببلدة لوشة (لاوس قديما)، جنوب غرناطة. خنقه جماعة من السفاحين في سجنه ليلا، وكان قد استأجرهم لقتله سليمان بن داود نائب الوزير محمد بن عثمان مدفوعا إلى ذلك بحقد شخصي. موجز دائرة المعارف الإسلامية، المرجع السابق، ج 1، ص 173. ينظر أيضا، التلمساني أحمد بن محمد المقرئ، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، حققه إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1408هـ / 1988م، المجلد 7، ص 170

¹² يبدو أن ابن خلدون في هذه المرحلة وفي مثل هذا الجو السياسي يجتهد إلى العلم وسرعان ما يعود، وفضل أن يتولى أخوه الوظيفة، تلتفا من طلب الملك واحترازا من بطشه وضمانا لولائه. وهذه فطنة ابن خلدون ومعرفته بأحوال الملك والمملكة.

¹³ جل رحلات العلماء لا تخلو من العلم أو الكتابة عن الرحلة وما جرى فيها من الحوادث، غير أن القصد الأول منها، هو أداء فريضة الحج.

¹⁴ هو أعلى منصب في الدولة، لأن الحاجب هو الذي يتولى شؤون الرعية ومسؤوليته تكون أمام السلطان، أو هو بمثابة رئيس الوزراء أو رئيسا للحكومة. موجز دائرة المعارف الإسلامية، المرجع السابق، ج 11، 3356

¹⁵ السخاوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، دط، ج 4، ص 145